

السموأل بن عادياء

بين الأسطورة والتاريخ

المقدمة :

الأستاذ :

المكي العلمي*

* باحث جزائري
يحضر للحصول
على درجة
الدكتوراه في
اللغة العربية
وآدابها من جامعة
دمشق .
- أستاذ الأدب
الجاهلي
والإسلامي بقسم
اللغة العربية -
كلية الآداب -
جامعة منتوري -
قسنطينة
بالجزائر .

إن المقال يعالج موضوعاً تاريخياً وأدبياً ، استقطب اهتمام علمائنا القدامى ، وبعض الدارسين المحدثين ، الذين ترجموا لهذه الشخصية الشاعرة وكأن المعلومات التي كتبت من المسلمات التي انتهى النقاش حولها .

لهذا وجدنا من تناولها ، هو في حقيقة الأمر ، قد أعاد صياغتها أو نسجها في نول قديم ، وإن اختلفت التراقيم والأصباغ .

وهذا الموضوع هو شخصية "السموأل بن عادياء" ، الذي ضرب به المثل في الوفاء ، كما ضرب المثل بحصنه "الأبلق" بتيماء ، مع تباين هذه التراجم والتعاليق ، حول تاريخيته وعبادته ، وشاعريته ، وعلاقته بامرئ القيس الكندي . ولكن بعد اطلاعنا على البحث القيم الذي نشره الأستاذ فضل بن عمار العماري في حوليات الجامعة الكويتية ^(١) ، تبين لنا بعد القراءة ، أن المحاولة جادة

(١) حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية الكويتية ، "السموأل" ، الحولية الحادية والعشرون سنة ٢٠٠٠/٢٠٠١ م .

الطريقية

ربيع الأول ١٤٢٤هـ / مايو ٢٠٠٣م
جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ / أغسطس ٢٠٠٣م

السنة السادسة

العددان: الحادي والعشرون والثاني والعشرون

لتوضيح الرؤية . وجمع أبعاد هذه الشخصية ثم الاجتهاد في بعض التفسيرات. أو الإسقاطات الثقافية . كما اتضح لنا بعد القراءة الثانية المتأنية ، أن هذا الموضوع يحتاج إلى معالجة أخرى ، وذلك بربط شخصية "السموأل" بـ "صموئيل النبي" ، كما في التوراة ، ثم بالنبي "أيوب" وملحمته .

ولأننا نعلم أن هذه الشخصيات تنتمي إلى الأصول السامية وأن العربية والعبرية هما من اللغات السامية ، حيث تقاربنا واقتربت الأسماء والأمثال وبعض الأفكار ، كما احتفظنا ببعض الموروث السامي القديم ، لغة وفكراً^(١) وكما يقال إن شبه الجزيرة العربية هي الموطن الأصلي والأول للساميين على فترات ، وعليه فقد اقترضت الثقافة العربية في الإسلام كما في الجاهلية بعض المرويات الإسرائيلية وأخذت العبرية نحوها من العربية في الأندلس ؛ لهذا ارتأينا أن نجتمع هذه الملاحظات التي تكونت لنا من حصيلة القراءة حول هذا الموضوع ، وعليه فالمقال هو تعقيب وتأصيل واستنتاج ؛ وإن كتابته هي تكملة لبعض الجوانب من البحث القيم الذي نشره الأستاذ فضل ، وإن كنا نختلف معه في بعض الاستنتاجات ، لكن هذا ليس بالخلاف وإنما هو جهد يضاف من أجل غاية واحدة ، هي خدمة التراث الذي هو في حاجة ماسة إلى جهود الباحثين من أبناء هذه الأمة .

إن البحث في القضايا الثقافية ، وفي مرحلة الأدب الشفوي على الخصوص، وهي مرحلة ينتابها عدم الدقة ، والبعد عن الحقيقة في كثير من الأحيان . لهذا فإن البحث فيها هو من قبيل التجديد وتنشيط الذاكرة ، وليس تحديداً للحقيقة ونهاية النقاش ، وعليه فإن بعثها هو إيجاد فضاء للتواصل الثقافي والمعرفي

(١) الأمثال في النشر العربي القديم مع مقارنتها بنظائرها في الآداب السامية الأخرى ، د. عبدالمجيد عابدين - ط ١ . دار مصر للطباعة ، ١٩٥٦ م .

لهذه الأمة ، عبر تاريخها الطويل ، وهذا مايجعل جهد الباحث في الأدب الجاهلي تحفه المخاطر ، ويجانبه في الغالب لب الصواب ، وإن اجتهد المجتهد وتقصّى الباحث ؛ وعليه فإن المحاولات العديدة على تنوعها ، وعلى قدر جهد أبنائنا والمخلصين من المستشرقين هي جهود ناجعة لفهم هذا التراث وتقريبه للأجيال ، وعليه فإن القول الفصل في قضاياها لا يكلف بها باحث ، وإنما يحسب له هذا الجهد والكدّ المضني ، سواء تناول قضايا من الجاهلية الأولى أو من الجاهلية الثانية ، لأن معالجة قضاياها تخدم التراث وتظهر عادياته ، لذا كان البحث فيه صعب المسالك ولا يطرقه أو يلجّه ، إلاّ من ملك الأداة والمعانة والصبر لبلوغ الحقيقة ، وحب الأمة .

وهذه جعلت الجهود ثقل والأنظار تكاد تنصرف عنه ، إلا أننا لا نعدم الجهود الخيرة والمخلصة لهذا التراث ، من أمثال عائلة شاكر ، وشوقي ضيف ، وشاكر الفحام ، وإبراهيم الكيلاني . ، وإحسان النص ، وراتب النفاخ ، وناصر الدين الأسد ، وحمد الجاسر ، وحاتم الضامن ، ويحيى الجبوري والطاهر بن عاشور ومحمد أبو الشنب وغيرهم .

وهذا الرعيل خلف وراءه جيلاً جديداً ، على قلة عدده ، فقد نهل من معينهم واستفاد من جهودهم ، ثم أضاف منهجاً ، واجتهاداً ثم حاول أن يوفق بين التأصيل والتجديد ، وبعضهم الآخر أخذته الحداثة من تلايبه ، وما أكثر هذا الصنف ، الذي نسأل الله له العافية والسلامة للتراث غير أننا لا نشك في جهده وإخلاصه في أعماله واستفادته من المناهج والدراسات الغربية .

إلا أننا لا نعدم من الصّنف الأول باحثين جادين ومخلصين ، أمثال : الأستاذ فضل بن عمار العماري - أطال الله في عمره - الذي وجه كثيراً من أعماله إلى

التراث ، ينقب ويصوب ، ويبيدي رأيه في القضايا الخلافية الشائكة ، محاوراً جريئاً. ونراه مرة أخرى مدافعاً ومتعاطفاً مع شخصياته أمثال : كتاب "حماد الراوية بين الوهم والحقيقة"^(١) وخلف الأحمر الشاعر العالم^(٢) و "الشعر المنحول قضايا ونصوص"^(٣) . وعلى الرغم من معالجته للقضايا بروية وبدون جلبه كما قال جعفر ماجد في طه حسين "وقد كان طه حسين من رواد التجديد ، إلا أنه لم يتخذ التجديد شعاراً خادعاً لاستهواء الناس ، والتماس العذر لنفسه عن جهله بمناهل الثقافة القديمة وتقصيره في فهم هذه الثقافة ، وتذوّقها وتطويرها ، بل كان يحثهم على اطراح الكسل والعجز والتغلب على حب السهولة ؛ لأن الأدب القديم لا يكون أدب عصر أو بيئة أو جيل ، إنما هو أدب كل العصور وكل البيئات وكل الأجيال "فأما ذلك الأدب الذي ينتهي أثره عند قراءته ، قد تكون له قيمة ، وقد يكون له غناؤه ، ولكنه أدب موقوت يموت حينما ينتهي العصر الذي نشأ فيه"^(٤) وهذا ما حصل للأدب القديم ، ومعالجة قضاياها من قبل الباحثين المحدثين أو الحداثيين . وعليه فإن العماري فيما أرى من النوع الذي لا يريد الكسل الذهني ؛ إذ عالج القضايا من غير إثارة القارئ أو تجاوزه ؛ وإنما إثارة شكه في المؤلف والمعتاد من الآراء ، والأخبار والمسلمات ، وكأنه في حوار مع القضايا ينتزع منك الاعتراف بالأخطاء والاقتناع بما يبدي من رأي ، ولكن في تواضع جم ، بحيث تخرج في النهاية بالإدانة لبعض الآراء الموجودة في كتب التراث ، على الرغم من إجماع بعض العلماء عليها ، كما تلمس في النهاية أصالة الباحث المنقب من غير تجريح أو

(١) حماد الراوية ، ط الرياض ١٩٩٦ م .

(٢) خلف الأحمر ، ط الرياض ١٩٩٨ م .

(٣) الشعر المنحول ، ط الرياض ١٩٩٦ م .

(٤) فصول في الأدب والثقافة ، ص ١٣٩ .

تهميش للرأي المخالف أو نبذه ، وإنما محاورته ومناقشته ، بحيث تستتج في أثناء المعالجة أن لديه لمسات من التجديد في الطرح واتضاح الرؤية ، وليس الشك المنكر للثقافة الأدبية أو التاريخية . كما ترتسم لديك من خلال ما تقرأه أنك ترى فيه صورة التراثي المدافع بإخلاص ؛ عند جمعه للمعلومات منقياً خبيراً بمشارب ومظان التراث ؛ ومرة أخرى ترى فيه صورة شاب باحث في مستقبل العمر ، أو في بداية الطريق ، تعجبك حرية رأيه وجرأة طرحه ، وهمة شبابه فتشعر بل تحس أن في أبحاثه يجري نسغ الحياة ؛ يسعى للحقيقة وفق معطيات النصوص ثم يسيرها خلفها ولا يسبقها ، كأنه يروضاها ؛ ليظهر ما تحمله من الحقائق ، وهذا ما يجعل أيضاً لكتابته نكهة خاصة ، من صفاء العبارة ، ووضوح الفكرة وسلاسة اللغة وهذوء في الطرح من غير تهويم . إذ يكتب من رؤية واضحة محددة ، وإن كنا نختلف معه في بعضها ، كما تقرأ ما يكتب من غير ملل يصادفك ، ولكنه مع هذا يلسعك أحياناً ببعض الآراء مما تجعل القارئ منتبهاً لما يقول ؛ لأنه مقتصد في العبارة وذهنٍ في الاستنتاج وكأنه يختزل مراحل التفكير ، إلا أنك تخرج في النهاية من أبحاثه بثلاثة مواقف ، أو شخصيات .

أ - شخصية مؤيدة لطروحاته .

ب - شخصية معارضة لاستنتاجاته .

ج - وشخصية محايدة أو محتارة يزرع في معارفها الشك أو النشاط الذهني، وعليه فأنا أكتب هذا المقال من خلال قراءة لبحثه القيم (سموأل : "السموأل" الأسطورة والمجهول)^(١) وقد خرجت بشخصية تحمل الأبعاد الثلاثة التي تخلقها كتاباته ، ومع هذا فإن نهاية القراءة لما يكتبه لا تترك ولا تؤدي إلى عداوة ؛ إلا أنه

(١) حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية - جامعة الكويت - الحولية الحادية والعشرون ، ٢٠٠٠/٢٠٠١ م .

والحق أبلج كفلق الصباح . يترك في نفسك خصومة ميّنة له تدعوك للبحث عن كتاباته ، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنه قادر على السياحة الثقافية إذ يتمتع بتنوع مشاريعه وآرائه وكثرة مصادره - ولا ينتزع منك أصالتك- كما لا تفارق ما يكتب إلا وأنت تكن له الاحترام لعدله في الطرح وإنصافه لخصمه وهذا ما تجلّى لي وارتسم من ملامح أو هو حصيلة قراءتي له .

وعليه فأظنه ولا شك في طيب قلبه - أن يقبل انطباعي أو فهمي أو رأيي حول مقالته أو بحثه- "السموأل" . لأنني سأدخل في نقاش واستفسار ، بل استنتاج مغاير لما استنتج ، من خلال هذه النصوص المستشهد بها ، وقد أصل إلى حد الاختلاف في النتائج التي توصل إليها .

ومن بداية الاختلاف أن العنوان بُني على عبادة سموأل الإله القديم ولكن مضمون البحث ونتائجه تصب في سموأل الشاعر .

هذا لو كان (السموأل - سموأل) ، ومن جهة أخرى القسم الثاني من العنوان: (الأسطورة والمجهول) ، و(الأسطورة أليست تحتوي المجهول؟) وعليه فالعنوان في رأيي يتم طرحه بناء على المعالجة التي سار عليها البحث ويكون كالتالي : "السموأل بين الأسطورة والتاريخ" إلا أننا نرجئ النقاش إلى وقت آخر وفي الصفحات الأخرى لنقول وبكل صدق : إن البحث يحمل حسنات كثيرة : إذ يعد من الموضوعات الجديدة : لما يحمله من شمولية الطرح : لأنه عالج قضية أثرية لها علاقة بالشعر الجاهلي، وحصن الأبلق ، وتيماء، ثم معالجة القصة الأسطورية التاريخية كالسموأل، وعاديا ، وزرقاء اليمامة وفتاة الحيّ وأثرها على شعر الأعشى والنمر بن تولب والنابعة، وأن القضية المحورية هي علاقة امرئ القيس بالسموأل والتضحية بالابن وشاعرية سموأل وعروبوته أو يهوديته .. وهي قضايا والحق يقال ، أكبر من هذا

البحث بل يصعب البت فيها مجتمعة ، فقد اختلف حولها القدماء في بعض جزئياتها وامتد هذا الخلاف إلى العصر الحديث وفي حدود علمنا إلى سنة ١٩٠٦م في مجلة المقتطف^(١) حول نسبة لاميته ومجلة الفيصل^(٢) إلا أن هذه المحاولات كانت تعالج بعض الشعر المنسوب له كاللامية والتائية وشاعريته وعرويته ؛ لذا فالمقال حاول أن يجمع هذه القضايا التي اختلف حول بعض جزئياتها رمضان عبد التواب^(٣) وفخر الدين قباوة^(٤) وجرجي زيدان^(٥) .

كما أن هذا البحث الذي أقدم عليه وحاول معالجته الأستاذ فضل بن عمار العماري له علاقة بالأدب السامي والعبري اليهودي أي علاقة العربية باللغات السامية وتداخل الأصول وتبني الموروث السامي وعلاقته بجزيرة العرب في العهد الجاهلي ، وعليه فإن البحث في هذا الموضوع ، ليس بالأمر السهل ؛ لأن صعوبته تكمن في عدة عوامل ، وقد بينها محمد عطية فقال : «لا ينكر أحد أن هناك صفة كبيرة تربط اللغات السامية بعضها ببعض وأهم هذه اللغات : العربية والعبرية والآرامية والسريانية وهي فرع من الآرامية والحبشية»^(٦) .

وكما شرح هذه العلاقة وبين أبعاد التقارب الثقافي بين العربية والعبرية والسامية إسرائيل ولفنسون فقال :«ونحن إذا نظرنا إلى المعضلة من هذه الناحية يمكننا أن نقول :

(١) المقتطف ، عدد مايو أيار ١٩٠٦م ، والمشرق السنة التاسعة ١٩٠٦م .

(٢) مجلة الفيصل ، العدد (٢٦١) ، السنة ١٩٩٨م .

(٣) كتاب الأمثال لأبي عكرمة الخي ؛ تحقيق رمضان عبد التواب ، ص ١٤ .

(٤) كتاب الاختيارين ؛ تحقيق فخر الدين قباوة ، ص ٦٦ - ٧٥ .

(٥) تاريخ آداب اللغة ، جرجي زيدان ، ص ١٤٢ .

(٦) الآداب السامية ، ص ٦ .

إن اللغة العربية تشتمل على عناصر لغوية قديمة جداً بسبب وجودها في مناطق منعزلة عن العالم بعيدة عما يتوارد عليها من تقلبات وتغيرات يكثر حدوثها ، وتختلف نتائجها اختلافاً مستمراً في البلدان العمرانية : على أن ما احتفظت به العربية من القديم ليس بريئاً من التغيير ، بل فيه شيء كثير يدل على أنه تقلب في أطوار مختلفة ، في حين أن غيرها من اللغات السامية ، قد احتفظت بصيغ وصور قديمة جداً كما في العبرية والآرامية^(١) فحدث التقارب بحكم الأصل السامي ، ثم المجاورة الجغرافية والثقافية فآثرت في بعض الحروف^(٢) والصيغ والكلمات ، وامتد هذا التأثير إلى بعض الآثار الفكرية .. ومن النماذج التي حدث فيها أو حولها هذا النزاع : هي قصة أيوب وأصالتها بين بشريته ونبوته ، وشخصيته التوراتية أو البابلية الآشورية ، وموطن بلاد ما بين النهرين ؟! فوظفت هذه الشخصية بكل أبعادها في التوراة أثناء السبي البابلي لليهود ، وعليه ، فقد تباينت الآراء عند الدارسين فأحمد سوسة يقول : «فأما القسم الثاني في التوراة فيسمى "كتوبيم" الكتابات والأشعار ويتألف من اثني عشر سفرًا : هي مزامير داود ، وأمثال سليمان وأيوب ، ونشيد الأنشيد ، وراغوث ، وهوشع ومراثي أرميا والجامعة ، وأستير ، ودانيال وعزرا ونحميا . وكتابات التوراة عن هذه الأدوار التاريخية تعد تاريخاً للوقائع السياسية والحروب التي وقعت في الشرق الأدنى في العهود الآشورية والبابلية والإغريقية ، أما ما ورد في التوراة في مزامير وأمثال وأشعار وما إلى ذلك من أساطير وقصص ، فهو مستقى من المصادر الأدبية القديمة لمختلف الثقافات التي اطلع عليها كتبة التوراة ، ومن المعتقدات والتقاليد الاجتماعية التي عاشوها

(١) اللغات السامية ، ص ٧ .

(٢) دروس في العبرية ، ربحي كمال ، ص ١١ ، ١٢ ، ٧٧ .

ومارسوها في فلسطين وبابل وهي كنعانية وبابلية ومصرية الأصل^(١) .

وتحول "أيوب" من جذوره التوراتية إلى بطل يصارع القضاء والقدر أو ينازع العدالة الإلهية ، من خلال الصراع الداخلي الذي يمثله الشيطان حيث يدفعه إلى التذمر من قضاء الله .

وهذا الإسقاط والتحليل أو الطرح ، لا يجعل القارئ يصل إلى قناعة واضحة بين بشرية أيوب ونبوته ، وبين أصوله التاريخية البابلية الآشورية أو أصلاته التوراتية، ولا يعني هذا أننا نقلل من جهد الباحث أو تحمله النتيجة ، فهو يقرّ بصعوبة الحلّ أو منح القارئ كدّ البحث عنها ، ويرجع هذا إلى التداخل بين الواقع والأسطورة وصعوبة عقلنة العبارة بل لغة الإنسان القديم فيقول: «لقد استخدم الإنسان السامي القديم لغة الأسطورة كوسيلة للتعبير عن أفكاره الدينية ، وترك لنا التراث الأدبي السامي عدداً من الأساطير التي تكاد تمدنا بفكرة شاملة عن الحياة الدينية للساميين القدماء وعن علاقة الإنسان بالإله وعن الأسلوب الديني الذي يتبعه الإنسان في حياته ، وهذه اللغة الأسطورية اختلط فيها المعقول باللامعقول ، والتاريخ الحقيقي بالأسطوري وأصبح من الصعب على الإنسان بمفهومه الحديث فهم الأسطورة وتفسير رموزها والعبارات التي فقدت معانيها بالنسبة للإنسان المعاصر»^(٢) .

وعليه فقد عذّب أيوب الإنساني أو بالمعنى الديني امتحن بالبلاء .. استغل الكاتب هذا الجانب ليخلق منه بطلاً من أبطال الأدب عند اليونان مبتعداً - فيما زعم- عن أصوله الثقافية وأصوله الدينية التوراتية؛ إلا أنه قدم بين أيدينا عذراً

(١) العرب واليهود في التاريخ ، ص ٣٠٨ ، ٣١٩ .

(٢) دراسات في تاريخ وحضارة الشعوب السامية ، ص ١٧٤ .

محاولاً إرضاء التاريخ وتهديئة خاطر المسلم . حيث يقول «ماقلناه وما قمنا به من تحليل قصة أيوب كما وردت في العهد القديم وكما نشرها اليهود ولا نتعرض لوضع النبي في الإسلام»^(١) . وعليه فإنه في عمله وتحليله لهذه الشخصية وتحت عنوان الاغتراب ، نراه ازدواجي الطرح في قصة هذا البطل التراجيدي اليوناني التوراتي . ولكننا نقول عنه : إنه في هذا العمل يبحث عن النموذج الأعلى أو كما يسمى النمذجة في الأدب المقارن ، وعليه فهو لم يقم عمله في الأصول وإظهار منابع القصة أو مصادرها ، وهي القضية التي عالجها حسن ظاظا في مقاله القيم تحت عنوان "أيوب ملحمة قديمة اغتصبها اليهود"^(٢) وقدمها في عرض مشوق ، معتمداً على ماورد في عبارات التوراة مظهرأً موطن أيوب في الجزيرة العربية وهو : «وأرض عوض التي كان يقيم فيها أيوب هي المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية ، وعلى الرغم من إلحاقها بنصها الضخم في العهد اليهودي القديم ، بقيت تحوم حولها شكوك ، منها أصل القصة ومنشؤها ، فإن اسم أيوب نفسه ليس اسماً عبرانياً ، وعليه يكون أيوب أقرب الألفاظ إلى الأصل العربي - وهو الرجل العائد إلى الله- وصار رمزاً للصبر على البلاء»^(٣) ، أليس هذا الموضوع من القضايا الشائكة في التراث ، لهذا كان الاجتهاد وكان الخلاف حولها ، ولكن في النهاية يبقى باب الاجتهاد مفتوحاً ؛ لأنه الذي يؤصل ويجدد التراث ، وعليه فإن البحث في شخصية السموأل لا يقل خطراً واختلافاً عن أيوب لترك خلافاً بين الدارسين إذا اختلطت فيه العبادة والسلطة السياسية ، والتاريخ والأدب ، خبراً وشعراً . وعليه فبداية الخلاف ليست في مضمون القصة وتاريخ السموأل وإنما امتد إلى عرويته أو

(١) دراسات في تاريخ وحضارة الشعوب السامية ، ص ١٨٤ ، ١٨٩ .

(٢) الفيصل ، العدد ٢٦١ ، السنة ١٩٩٨ م . ص ١٩ .

(٣) الفيصل ، العدد ٢٦١ ، السنة ١٩٩٨ م : ص ١٩ .

أعجميته . وقد تناولت هذا الخلاف المصادر العربية على تباين فنونها ، إلا أننا لا نتعجل النتائج ونطرح الأحكام ، وإنما نعرضها في سياقها ، منطلقين من عنوان المقال : سموأل لصاحبه الأستاذ فضل بن عمار العماري ، من دلالة الاسم وأخباره ، وما قيل حول المثل : «الأبلق ومارد» ونسبته إلى الزباء ، وعن عروبة المثل أو فصاحته وقد قال المرحوم صبحي صالح أن عربية هؤلاء الأقوام هي عربية النقوش(*) . لهذا نتساءل عن فصاحة اللغة وبلاغة المثل ؟ ولكن ، لنعد إلى لسان العرب لمعرفة أصل كلمة (سمل) وما صاحبها من شروح - أو معان وعن اللسان «سَمَلٌ : مكان سموأل : سهل التراث ، وقيل هي الأرض الواسعة ، وقيل الجوف الواسع من الأرض ، قال امرؤ القيس :

١ - ... أثرت غباراً بالكديد سموأل^(١) .

وجاء أيضاً «سَمُولٌ : طائر ، وقيل بلدة كثيرة الطير .

يقول الربيع بن زياد :

١ - ... لم يعدلوا ريشة من سَمويلا .

وسمأل : سموأل : الظل ، والسموأل بن عاديا بالهمزة هو على صيغة :

فعوأل ، قال الجوهر بن مرة صوابه فعوأل^(٢) وعن كتاب الأعلام الجاهلية

«صيغة : فعوأل ، بزيادة الواو الساكنة بعد العين من أعلامهم التي تسموا بها ،

(*) العرب في سوريا قبل الإسلام - ديسو ، ص ٩٤-١٠١ ، نقوش نبطية قديمة - الرياض .

(١) لسان العرب (سمل) ، ح ٤٧/٣ ، وفي ديوان امرئ القيس ، المركل الذي ركلته الخيل يحوا فرها ،

فأثارت الغبار لصلابتها وشدتها ، ص ٢٠ ، شرح المعلقات العشر ؛ تحقيق قباوة : الكديد المركل

الذي يركل بالأرض ، ويروى بالكديد السموأل : وهي الأرض الصلبة ، والسموأل : أبدلت

الهمزة واواً وأدغمت فيها الواو الأولى ، ص ٦٦-٦٧ .

(٢) اللسان (سمأل) . سمل ح ٣٤٦/١١ ، ٣٤٧ .

والسموأل اسم عبري . سمي به الشاعر الجاهلي اليهودي ، واسم والد (رفاعة الصحابي) سموأل^(١) .

وبعض المصادر تشير إلى أعجمية الاسم ولكن عرّب فيما عرّب من دخيل أعجمي ، وقضية الأعجمي قضية شائكة تداولها الدارسون حتى وجه الجدل إلى أعجمية بعض الكلمات في القرآن^(*) على سبيل الاقتراض والذي هو من طبيعة اللغات الحية ، إلا أن ما أثار اللبس حول بعضها ، أن علماءنا القدامى لم يكونوا على اطلاع باللغات السامية بالقدر الكافي ؛ علماً بأن الاقتراض عرف منذ الجاهلية .. ولما أشكلت عليهم بعض الكلمات ، ولم يجدوا لها جذراً في العربية ، اجتهدوا وحملوها ما لا تحتل ، غير أن هذا الاجتهاد لم يصمد أمام الباحثين إلا أن بعضها بقي ينقل كما هو ، غير أن علماء اللغات الشرقية من عرب ومستشرقين قد أزالوا اللبس عنها . ومن بينها "السموأل الذي أثار الجدل أو الخلاف ولم يعد الجذر اللغوي يقنع ، فقد جاء في الصحاح : «إسرافيل : اسم أعجمي كأنه مضاف إلى "إيل" و"أيل" اسم من أسماء الله تعالى ، عبراني أو سرياني ، وقولهم جبريل وميكائيل كقولهم عبدالله وتيم الله»^(٢) ، أما الخفاجي فقال : «سموأل بن عادياء معرب سَمُوِيل ومعناه عطية الله»^(٣) ، وفي المعرب "شمويل"^(٤) أما ابن دريد فقال : «السموأل بن حيّا بن عادياء بن رفاعة بن الحارث بن ثعلبة بن كعب ، وهو الذي يضرب به المثل في الوفاء ، وكان السموأل يهودياً وهو صاحب تيماء ، والسموأل

(١) الأعلام الجاهلية ، ص ٢١٨ .

(*) كتاب اللغات في القراءات ؛ تحقيق صلاح الدين المنجد .

(٢) الصحاح ، سرف ، ص ٥١ ، ٣٠٩ .

(٣) شفاء الغليل فيما ورد كلام العرب من الدخيل ، ص ١٠٤ .

(٤) المعرب ، ص ٢٣٦ .

عبراني وهو أسموئيل فأعربته العرب ، وكذا حيّا وعاديا . والسموأل : الأرض السهلة ، إن اشتقته من العربية»^(١) . ويستنتج من هذا النص : أن حيّا وعاديا أعجميان أيضاً ، ولكن بعض الدارسين من أمثال الأستاذ فضل بن عمار العماري يرجع هذا الاسم إلى العاديات أي إلى القدم ، وليس عاديا «ينسب إلى الجد الأعلى للسموأل»^(٢) ويضيف الجواليقي إلى ترجمته معتمداً على ابن دريد ، ويعده عربياً/صليبية ومن الأزد فيقول : «قال ابن دريد : السموأل بالسريانية هو شمويل ، وقال أبو بكر : السموأل بن عاديا بن حيّا من الأزد أولاده بتيماء إلى اليوم»^(٣) فألحق بعمود النسب العربي ونحن نعلم أن اليهود كانوا بالمدينة وتنوعت قبائلهم ونحن نتساءل ما العلاقة بين الشخصيتين (السموأل القديم والسموأل اليهودي الشاعر) وقد ألمح إحسان النص إلى الشاعر المتأخر ولكن مع ذكر الأول فقال : «ولد كعب بن عمرو مزيقيا بن عامر : ولد كعب ، ثعلبة وجبله والسموأل بن عاديا بن رفاعة بن الحارث بن كعب ، ولفظ السموأل عبراني ، وهو أشمويل ، فعربته العرب ، وكان يهودياً ، وهو صاحب تيماء ، وقد ضرب به المثل في الوفاء وله قصة مع امرئ القيس ، وابن السموأل الذي مدحه الأعشى .. ومن ولد السموأل بمصر آل الغمر ابن الحصين ابن المساور»^(٤) ، فقد ألحقة إحسان بقبيلة الأزد إلا أننا نجده ربط شخصين بعيدين زماناً ومكاناً وإن ارتبطا بالاسم الواحد ولكي نقرب أكثر من الاسم ودلالته ومصدره في التوراة - العهد القديم - فقد جاء في الأصحاح (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) اسم صموئيل يعبد ربه منذ الصغر إلى أن كبر ، والنص التوراتي يترجم

(١) الاشتقاق ، ابن دريد ، ص ٤٣٦ .

(٢) السموأل ، ص ٦٣ .

(٣) العرب ، ص ٢٣٦ .

(٤) القبائل العربية : أنسابها وأعلامها ، ح ٥٦٠/٢ .

مراحل حياته ولكن نأخذ مادتنا من الاسم والنص هو : «وكان صموئيل يخدم أمام الرب وهو صبي متمنطق بأفود من كتان»^(١) . كما ترجم له صاحب كتاب : قاموس الكتاب المقدس فقال: «صموئيل اسم عبراني معناه اسم الله، أو اسم: إيل ، أي الله . هو أول أنبياء العبرانيين بعد موسى وآخر القضاة ... وكان صموئيل نبياً، وصار بعد موت عالي صاحب السلطان الديني غير المنازع في الأرض، وأراد أن ينصرف لتقويم الشعب، وقد عُد صموئيل في قائمة رجالات العهد القديم الذين سلكوا بالإيمان»^(٢) . وهكذا يتجلى أمره ويتضح اسمه ومكانته الدينية وتوارده في التراث الجاهلي الأول ، والثاني، وهكذا يتبين التداخل وتهويم التفاسير أو التراجم لهذا الاسم بين عرويته وعبرانيته أو يهوديته .

أما عن علاقة آلهة العزى بإسرائيل على أنه يتقبل القرايين البشرية، بل تجاوز به بعض الدارسين - على قلتهم - وجعلوا العزى هي الإله السموأل وفسروا اسم الأعشى من هذا المنظار . ولعل الأستاذ فضل اجتهد وربط التاريخ بالديانات الوثنية القديمة وعليه سنحاول إيجاد هذه العلاقة بين الإلهين ومكانة العزى عند العرب . وعليه فإن العزى عبادتها بعض القبائل العربية اليمنية وانتقلت أيضاً إلى القبائل الشمالية ثم العراق ولم يكن خافياً اسمها وعبادتها ودلالاتها في الشعر كما تذكر الأخبار عنها أنها من العبادات الأنثوية - وإن لها أضحية بشرية إلا أن ربطها بالسموأل - تركيباً أو دلالة ، مما يدعو إلى الغرابة .

فالسموأل : اسم مركب من قسمين : سَمُوْأيل - وأن السموأل يرجع إلى الفترة التوحيدية الموسمية (صموئيل) كما ورد في التوراة شبيه بتركيب صموئيل وميكائيل ، فاكتمل هذا الاسم تقديساً وثناً من الإله - إيل ، سمو - الرفع، كما

(١) الكتاب المقدس - أي كتب العهد القديم والجديد ، ص ٤٢٨ - ٤٣١ .

(٢) قاموس الكتاب المقدس ، ص ٥٥٣ .

يوشي معناه فتكوّن الاسم الجديد الذي حمل القداسة وإن تحول إيل في اليهودية بعد الإصلاح الديني إلى "اليهو" كما أن إيل لا يوشي بالأنوثة - فكيف بنا نجعل سموأل هو العزى (الأنثى) - كما أننا في الديانة العربية الجاهلية لا نجد فيها اسم السموأل . وقد ذكر رينيه ديسو : عن الإله العزى فقال : «أما ما يختص باللات ، فالصورتان المتقابلتان لها هما العزيان مثى العزى وهما كما يقول نولدكه نجم الصباح ونجم المساء ومن المحتمل أن يكون قد أطلق على نجم المساء ؛ اسم مناة الذي ذكرناه من قبل ، والذي يجوز أن يكون قد سمي بعد ذلك روضة بينما كان نجم الصباح هو الذي خصص للآلهة ، آلهة الحرب التي كان يخصص لها نصيب في غنائم الحرب والأسرى»^(١) ، ولعل التقارب الذي حصل عند الأستاذ فضل بن عمار العماري هو تقديم الأضحية البشرية وهي قصة ذبح الأب من طرف الحارث الغساني للإله السموأل ، وبين آلهة العزى وما قدم لها من أضحيات بشرية إن صحت المرويات .

ولكن لنعد إلى ما قيل عن الإله "إيل" ، الذي ارتبط بالسموأل هذا فذكر على أنه إله الخير والحكم ، والعدل ، فأضيف إليه اسم : سمو ، وهو صموئيل العابد ، الذي صار نبياً فيما بعد، بعد داود عليه السلام ، وعليه فإن المقارنة مقبولة ، أما الإصاق أو الإسقاط ... إله العزى على السموأل أو ربطه ، فإنه يدعو للغرابة ، وهذا ما فعله الأستاذ فضل ، معتمداً على الأستاذ جواد علي حين قال : «فإن

(١) العرب في سوريا قبل الإسلام ، ص ١٢٥ .

وقد ذكر «ديسو» مراجعه الوثنية فقال : «فلها وزن : بقايا الوثنية ط٢/٤٠ ، ولجرايح : دراسات في الديانات السامية ط٢/١٣٥ . - هارتويج نبورج : ديانة الآلهة العزى ببلاد العرب في القرن الرابع الميلادي المنشور في المذكرات الشرقية بمدرسة اللغة الشرقية عام ١٩٠٥ م ، ومحاضرات جلسات أكاديمية الفنون والآداب عام ١٩٠٥ م ، ص ٢٣٥ - ٢٤٢ - نأمل أن يكتب لها الترجمة إلى العربية .

السموأل اسم لإله مدينة جؤ^(١) ثم يورد قول جواد علي ، وهذا الأخير لم يعلل علاقة الإلهين ، بل انتقل فجأة من إله إلى آخر فقال : «والسموأل هو ذلك الإله نفسه أو هو العزى التي كان لها معبد في بصرى ، يدعى "بيتا إيل"^(٢) ، وهذا الربط أو الإسقاط ، لا يؤديه في رأينا السياق ودراسة مواطن الإلهة وتغير وظائفها ، كما أن من صفات الإله "إيل" كما جاء في قاموس الآلهة والأساطير ما يلي : «أما الإله "إيل" فاسم عام لفكرة الألوهية ، وقد عرف هذا المصطلح في كل اللغات السامية باستثناء اللغة الحبشية ، وإن كلمة "إيلو" أو "إيل" كانت تعني الله تعالى»^(٣) وعليه فإن تفسير كلمة سَمُو : تعني الرفعة والسمو ، ونسب هذا للإله "إيل" هل هذا هو الأصل في اللغة السامية أم هو البحث عن جذر لغوي من القاموس العربي ، هذا من جهة: أما تفسيره بالإله في شعر الأعشى ، فإن شرح الأبيات لا يشير إلى هذا ، بل يجعل سموأل ، يصارع الحارث الغساني من أجل وديعة أو أمانة وضعت لديه ، وعليه فالشرح اللغوي لمضمون الأبيات لا يؤله سموأل هذا ، كما أن العرب لم تعرف إلهاً وثنياً^(٤) بهذا الاسم كما عرف الإله "إيل" وكما مر معنا ، فقد عرف بالخير حتى قال عنه صاحب موسوعة الفلكور ما يلي : «إيل كبير الآلهة العربية السامية ، كما أن من اسمه جاءت تسمية ملائكة العرش أو أربعة أركان التابوت عند كافة الشعوب السامية ، وهو جبرائيل ، وعزرائيل وميكائيل وإسرافيل وأن جميع الشعوب والقبائل السامية ، ادعت انتماءها إلى هذا الإله . فظهر في آخر أسمائهم مثل إسماعيل أي سمع إيل»^(٥) وخير ما تقدمه لإزالة اللبس ، عن علاقة الآلهة

(١) سموأل ، ص ٢٥ .

(٢) المفصل ، ح ٢٠٦/٦ .

(٣) قاموس الإلهة والأساطير ص ١٧٥ .

(٤) الوثنية في الأدب الجاهلي ، عبد الغني ريتون - سوريا : وزارة الثقافة ، ١٩٨٧ م .

(٥) موسوعة الفلكور ... ص ٧٨ ، ٧٩ .

"العزى" و "السموأل" الذي أورده الأستاذ فضل نقلاً عن غيره على أن السموأل إله الأنباط وأنه يطاع بالقرايين البشرية ، وهذا ما نفاه إحسان عباس فقال : «وليس لدى الأنباط ما يشير إلى ضحايا بشرية وإن قرن بعضهم بين العزى وبين التضحية لها بفتاة أو فتى عند غيرهم ، وإذا كان الدم أهم قربان : فلعل ذا الشرى حين أصبح "ديونيسيوس" نفسه غدا يتقبل بدلاً عنه "دم العنقود" وكانت الضحية الحيوانية تحرق أحياناً كما كان حرق البخور يقوم مقام تقديم الضحايا وحرقها .. ومن القرايين أيضاً الثمار والحبوب ولحم الطيور»^(١) .

أما عن ترجمته في كتب التراجم والأشعار العربية ، فإنها في رأيي قد دونت خبراً مُلفقاً وشعراً منتحلاً ، ولم تقتصر على السموأل وحده ، ولكي تكون أقرب إلى منابع أو مصادر ترجمته ، فإن طبقات فحول الشعراء يعد من أهمها وأقدمها في الترجمة والنقد ، فيقول : «وفي يهود المدينة وأكنافها شعر جديد ، منهم السموأل بن عاديا ، من أهل تيماء ، وهو الذي كان امرؤ القيس يستودعه سلاحه ، فسار إليه الحارث بن أبي شمر الغساني فطلب منه أسلحة امرئ القيس ... فذبح ابنه ولم يخزن الأمانة»^(٢) .

فالخبر كما نرى ركز على شاعريته وما في المدينة وأكنافها من شعراء اليهود ، أما بقية القصة فهي نسيج لا يوحي بعقلنة الأحداث التاريخية .. ومما تفتده الحقائق التاريخية أن امرأ القيس طارده المناذرة وليس الغساسنة وأن الودائع والأسلحة هي بقايا النعمان الفار من كسرى ، حيث أودعها عند بني شيبان وكانت من الأسباب الرئيسية في معركة ذي قار ، وهذا عجز لدى الرواة عن كشف الحقيقة ، فأسندوا

(١) تاريخ دولة الأنباط ، ص ١٣٧ .

(٢) الزعيم السياسي في المخيال الإسلامي بين المقدس والمدنس ، ص ١٧ .

الفكرة إلى الذاكرة التاريخية ، وهكذا تواترت القصة وتداخلت الأحداث ، وصار السموأل في المخيال الشعبي بطلاً جمع الصفات بحيث شكل نموذجاً قيمياً اجتماعياً ، فارتبط الوفاء به .. أما من حيث البناء الفني في مثل هذه الصيغ المتداولة والمتكررة بين شعراء الجاهلية حتى أثرت في نمطية التفكير لدى الرواة أو الذين دونوا المروي فيما بعد ، وعليه فقط لاحظ بعض الدارسين هذه النمطية في الصيغ عند الشعراء بحيث تناقلها الشعراء عن بعضهم مع تغيير في الكلمات أو الصيغ الخطابية أو حذف بعض عناصرها إلا أنها قصة واحدة أو خبر واحد .. وقصة السموأل هذه إحدى الصيغ أو القصص الجاهزة التي تناقلها الشعراء والرواة ثم الكتاب ، فترسخت هذه القصة لدى كتابنا المعاصرين . وفي هذا الصدد يقول عبد المنعم خضر الزبيدي : «فالقصائد الجاهلية تلتزم في نهجها وتطورها ، أو تتابع مواضيعها ، طرقاً وأساليب معلومة محددة تعارف عليها الشعراء ، وتتألف في الغالب من معان وصور ... ومواقف أو مشاهد وأحداث تقليدية يرثها الخلف عن السلف»^(١) وهذا مانراه إذاً في تكرار قصة السموأل بين الأعشى والنمر بن تولب أو ذي الأصبع العدواني عند ذكر الاسم أو النابغة ، ذكروا قصة زرقاء اليمامة ، أو فتاة الحي بين الشعراء .. مما يجعلنا لا ننتظر تجديداً في القصة أو إظهار حقيقة بقدر ما نرى تلويحاً في الأحداث أو تغييراً في بعض الجزئيات .. وأما أبيات الأعشى ، المستشهد بها والتي نقلت القصة وكرّست هذا المنحى الذي يناسب القصص الشعبية ولا يتماشى مع أحداث التاريخ وإن كنا لا نلوم خيال الشعراء حيث يجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم كما يقال وعليه فأبيات الأعشى يمدح بها شريح بن حصن بن عمران ابن السموأل بن عاديا ، يقول :

(١) مقدمة لدراسة الشعر الجاهلي ، ص ٨٠ .

- ١ - شريح لا تتركني بعد ما علقت حبا لك ليوم بعد القدّ أظفاري
- ٢ - قد طفت ما بين باذقيا إلى عدن وطلال في العجم ترحالي وتسياري
- ٣ - كن كالسموأل إذ سار الهمام له في جَحْفَل كَسَوَادِ الليل جرار
- ٤ - جار بن حيا لمن نالته ذمته أوفى وأمنع من جار ابن عمّار
- ٥ - بالأبلىق الضرد من تيماء منزله حصن حصين وجار غير غدار^(١)

والملاحظ على السموأل أن تاريخه يعود إلى زمن قديم حسب مناسبة القصيدة ، إذ هو الجد الرابع لشريح هذا ولهذا يبعده تاريخياً عن السموأل الشاعر اليهودي المعروف قبل الإسلام حيث جعلنا نميل إلى أنه عاصر طسما ، أو الزباء ، وجذيمة الأبرش .

هكذا كانت قراءة فضل بن عمار لأبيات الأعشى ، وليست قراءة لخلق مفهوم جديد للنص كما هو في النقد المعاصر بحيث تتعدد القراءات للنص الواحد؛ إلا أن هذه تقتضي قراءة واحدة لبناء حقيقة تاريخية في نص ذي نزعة قصصية تغلب عليه نزعة القص على المضمون الحقيقي له ، وهذا أيضاً ما وقع فيه جرجي زيدان فقال: «السموأل بن غريز ابن عاديا ويلحقون نسبه بالكاهن هارون أخي موسى ، وهو صاحب الأبلىق بتيماء ويضرب به المثل في الوفاء ، وحديثه مع امرئ القيس مشهور وأن العرب وضعوا الأحاديث وبالغوا على سبيل التمثيل ترغيباً في الوفاء ، ولا نقول ذلك مستحيل ولكنه بعيد الحدوث»^(٢) فزيدان نقل الخبر وإن أنكر بعض الجوانب من الأخبار بل شك في حدوثه ؛ إلا أنه لم يبين امرأ القيس ولا السموأل ؟ هل هما قديمان وقعت بينهما هذه الحادثة؟ لهذا لم يقدم نقداً تاريخياً للنص.. لهذا نقول:

(١) ديوان الأعشى ، ص ١٧٩ .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ، ح ١/ ١٤٣ ، الأمثال ؛ تحقيق رمضان عبد التواب ، ص ١٢١ ، والأمثال

لابن سلام ، ص ٩٤ ، فصل المقال ... ص ١٣٠ ، ١٣١ .

إن محاولة بل اجتهد الأستاذ فضل في حل هذا اللغز أو إعادة صياغته من جديد . نراه هنا منحاً أسطورياً ميتولوجياً إسقاطياً وكأنه يعيد قراءة ثانية ، كما فعل مصطفى ناصف على الخصوص عن إعادة قراءة بعض النصوص في كتاب(*) يُعدُّ رائداً في هذا الباب : إلا أنه حمل بعض النصوص فوق ما تحمل ونكَّب بالمعاني إلى ما يريده هو .. مما جعلنا لا نشاطره في الكثير مما ذهب إليه من النتائج وإن كنا لا ننكر العلوم الإنسانية المساعدة على فهم الشعر وتفسيره .

وأما النص الثاني الذي استشهد به الأستاذ فضل، فهو للشاعر النمر بن تولب فيوحي لنا بأن الشاعر ، استشهد بالشخص "عادياء" المنيع بحصنه والثري بماله ، وإذا بالدهر قد أتى عليه ، وهذا لإظهار قوة الدهر ، وهو في مجال العظة والعبرة ، أي أن الدهر يقضي على الإنسان وما يملك ، والشاعر كما هو معروف من شعره ثم إسلامه فيما بعد ؛ إذ يميل إلى فعل الخير ويحث عليه ، كما أن الشاعر لم يذهب في بناء القصة كما فعل الأعشى صاحب الأخبار والأسفار؛ وعليه فإن السؤال ، أو عادياء ليس إلا عبداً عند العرب وإن عبد عند الأنباط كما ذكر الأستاذ فضل(١) .

ولتتم الفائدة نأتي بالشاهد الذي أورده النمر في قصيدته هو قوله :

هَلَا سَأَلْتَ بَعَادِيَاءَ وَبَيْتَهُ وَالْخَلَّ وَالْخَمْرَ الَّتِي لَمْ تَمْنَعْ(٢)

(*) قراءة ثانية لشعرنا القديم .

(١) السموأل : (البحث الكامل) .

(٢) ديوان النمر بن تولب ، ص ٧٣ ، ٧٤ ، وعلق القيسي محقق الديوان على البيت قائلاً : «عادياء :

هو أبو السموأل الغساني ، وقد أراد عاداً وكل شيء قديم عند العرب عادي ، يقول : لم يبق عادياء وبَيْتَهُ وما كان فيه من الغنى ، كما حقق اختلافاً عند فخر الدين قباوة أثناء شرح

قصيدة النمر بن تولب في الاختيارين ص ٢٧٢ .

شرح حماسة أبي تمام ، ح ٢٧/١ ، ٢٨ ، كتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، ص ١٢٢ ،

والخزانة ١٥٥/١ .

ولعلنا نستنتج مما سبق أن سموأل، أو عاديا، هما شخصان قديمان، أو هما من نسب واحد يتمتعان بمكانة اجتماعية.. وتفرد سموأل بالقصة وقد تكون له أو لأحد أجداده والمسمى عاديا أو أن سموأل يرجع إلى عهد قديم فقيل عنه عاديا.. أي من العرب البائدة، تتمتع بخصال أو قيم اجتماعية مثلى كان على رأسها الوفاء، مهما كان سببه فضربت الأمثال به ونسجت هذه القصة حوله، وتناقلتها المصادر وكأنها حقيقة تاريخية أو من المسلمات الثقافية؛ ولكن الأستاذ فضل كان صاحب المبادرة الجريئة لإزالة ما علق بالقصة والشعر من أوهام أو أغاليط الرواة.

وللتدليل أيضاً على عروبة سموأل، فإن الأستاذ فضل استشهد بلقب ذي الأصبع العدواني بالسموأل؛ إلا أن هذا اللقب لم يذكره إلا الأصمعي وهو رأي منقطع السند وأحادي المصدر ولعل الأصمعي نظر في شعر ذي الأصبع ذلكم الشاعر اليتيم الذي خبر الدهر أيامه فعجنه وعجنها، فصار صاحب الحكمة والمثل العليا. وجد فيه الأصمعي شكاً بما ورد في شعر سموأل، فأعطاه لقب سموأل كما تبين لنا؛ لأنه لا علاقة بين الشاعرين وهذا ما لمسه من خلال ترجمة في الديوان.. ومن هنا انساق الأستاذ فضل وتبنى عروبة الاسم وانتشاره، فقال: «إن سموأل نفسه من الأسماء العربية التي اتخذت معاني مختلفة حتى أن ذا الأصبع كان يسمى حرثان بن سموأل»^(١)، وأما عن ترجمته وأخباره فيقول المحققان «وعليه فاسم أبيه اختلفت فيه الأصول، فهو عند الأصمعي حرثان بن سموأل وعند السجستاني حرثان بن محرث وعند ابن قتيبة هو ابن عمرو، وأغرب الأمدي في هذا فجعله حارثة بن محرث مخالفاً مشهور الرواية العربية»^(٢) ولم ينفرد بهذا اللقب إلا الأصمعي وهو

(١) سموأل، ص ٢٦.

(٢) ديوان ذي الأصبع، ص ٨.

نسب أو لقب قليل الذبوع - وكما ذكر- أن ذا الأصبع «شخصية من شخصيات العصر الجاهلي ، تتمثل فيه المزايا العربية الأصيلة فهو سمح جواد ، عطوف ، شجاع»^(١) لهذا لا نميل إلى هذا الرأي ونعد السموأل من الأسماء العربية .

أما حصن الأبلق بتيماء وذكر تيماء في مواطن بالجزيرة العربية ، فإن البت في هذا الحصن ، أو تيماء يتطلب التأني ؛ لأن هذا المكان لم يكن معلماً جغرافياً بدوياً ، أو أدبياً جغرافياً كما يقول حسين نصار ، بل هو إرث حضاري ، اختلفت مواطنه في الجزيرة العربية لهذا وددنا لو تمعن فيه الأستاذ فضل بن عمار ورسم لنا خريطة تبين مواطنه؛ لأن هناك احتمالاً أن يكون هذا الاسم واحداً ولمكان واحد وهذه الملاحظة تنبأها المرحوم نسب نشاوي عند رسم المسار الجغرافي لمعلقة لبيد ليبين علاقة الأمكنة بالمعلقة وترحال الشاعر؛ لأن تحديد صاحب معجم البلدان أو البكري في معجم ما استعجم لم تعد مادتهما كافية لإجلاء بعض المعالم التاريخية الجغرافية ، فمثلاً تحديد تيماء في صفة جزيرة العرب جاء تعريفه كما يلي : «تيماء منزل كثير النخل عادل عن محجة العراق وهو غير تيماء السموأل»^(٢) وعنه يقول الثعالبي : «حصن تيماء بين الشام والحجاز يقال أن سليمان عليه السلام ، بناه بالحجارة ، فسمّته العرب ، وكان ملكه عاديا اليهودي ثم ابنه السموأل ومن أمثال العرب في العز والمتعة قولهم «تمرد ما رد وعز الأبلق ، يعني حصن تيماء ، ويقال له الأبلق الفرد»^(٣) . وعلى سبيل المثال، فإن تيماء وردت في معلقة امرئ القيس^(٤)

(١) ديوان ذي الأصبع ، ص ١٧ .

(٢) صفة جزيرة العرب : الهمداني ، ص ٢٩٤ .

(٣) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، ص ١٣٢ ، ٥٢٠ .

(٤) شرح المعلقات العشر : التبريزي ؛ تحقيق فخر الدين قباوة ، ص ٧٧ .

وموطنه بنجد حيث تربى في مواطن بني أسد^(١) فيذكر تيماء وأطمها التي داهمها السيل ، وتيماء إحدى القرى كما يقول فخر الدين قباره^(٢) ، أما تيماء ذات الاسم الأعجمي فيقول عنها صاحب قاموس الكتاب المقدس ما يلي : «: اسم عبري ، ربما كان معناه الجنوبي وهي قبيلة إسماعيلية تسلسلت من تيماء ، فكانت تقطن بلاد العرب ، وتسمى أيضاً الجهة التي يسكنون فيها "تيماء" وكانت القوافل معروفة جداً في هذه البقعة ، وتيماء في بلاد العرب في منتصف الطريق بين دمشق ومكة»^(٣) وهذا ما يدفعنا إلى فهم الأدب الجغرافي فهماً ثقافياً وليس لغوياً ميكانيكياً آلياً ؛ لأن النقل هكذا يكرس الرأي السائد .

الخانمة :

وعليه فإن الملاحظات التي أبديناها حول الموضوع ؛ هي جهد مقلّ حاول الاسهام في موضوع واسع ، صعب المسالك ، وقد حاول الأستاذ فضل بن عمار أن يجمع أطرافه المتباعدة ؛ وعليه فإن هذه المحاولة دفعتني إلى استنتاج بعض الجزئيات المعرفية نجمها فيما يلي :

أن الشعر الجاهلي دخله نحل ومن جملة ما طرأ عليه بعض الأخبار ذات المنحى القصصي منها : قصة السموأل وما حيك حوله من ذبح ابنه وقصة مثله ، وحصن الأبلق .. وهكذا تباينت حوله الآراء فقليل بعروبه وقيل بيهوديته .. وهكذا كُرس المنحول وتداولته المصادر بما فيه من المتناقض من المعلومات أو الأخبار كمسلمات تتداولها الأجيال .

(١) تاريخ الأدب العربي : فروخ ، ج ١/ ١١٦ .

(٢) شرح المعلقات العشر ، ص ٧٧ .

(٣) قاموس الكتاب المقدس (تيوان) تيماء ، ص ٢٢٨ .

ومما يُوسف له أننا وجدنا بحثاً أكاديمياً تحت عنوان "شعراء يهود في الجاهلية وصدر الإسلام" ^(١) لم يشر إلى هذا الخلاف ، بل وجدناه يشيد بالسموأل إلى حد الإعجاب ويخلط عروبة اللغة بيهودية السموأل في تركيب عجيب فقال : «إن التاريخ يسجل أغرود المثل العربي الشهير "أوفى من السموأل" كما نضيف إلى ما سبق وهو أن "السموأل" اسم قديم ، عاش في منطقة اليمامة ، وكان يملك حصناً وقد تكون حدث له قصة تاريخية شبيهة بما جرى للنعمان بن المنذر عندما طارده كسرى ولما أسره طلب ودائعه أو أسلحته من بني شيبان ، فأسفرت هذه الخصومة عن معركة ذي قار ، أو أنها تحمل جزءاً من خبر امرئ القيس عندما طارده المناذرة أو محاولته الانتقام وإعادة ملك كندة الضائع» .

كما أن السموأل هذا ليس إلهاً كما فسرهُ الأستاذ فضل بن عمار بناء على ما ورد في شعر الأعشى، وإنما هو شخصية تاريخية عاش في حقبة الجاهلية الأولى، عهد عاد وثمود وطسم وجديس . وأما السموأل الثاني، فهو شخصية تاريخية أدبية، عاش في المدينة أو في أرياضها ولا يشك في وجودها ، تبعاً لوجود الجاهلية اليهودية وقبائلها أو بطونها المذكورة في كتب الأنساب ضمن القبائل التي سكنت المنطقة الحجازية، فتيماء وخيبر معروفتان كغيرهما من الآطام أو الحصون للإقامة أو التجارة عرفتا في التاريخ الاقتصادي أو الاجتماعي الثقافي في الجاهلية وصدر الإسلام .

إلا أن هذه الشخصية الثانية نحلت أشعاراً أو قصائد نبّه عليها الدارسون أمثال الأستاذ محمود جبر الريدوي في المقال القيم : (قصة قصيدة) ^(٢) ؛ وعليه

(١) عبدالله جبريل مقداد ، ص ٣٠١ .

(٢) الفيصل ، العدد ٢٦١ ، السنة ١٩٩٨م ، ص ٥٤ .

فالسموأل منحه بعض الرواة قصة حياة طويلة المدى ونحلوها أشعاراً وقد علق عليها جواد علي قائلاً : «ويرى (ونكلر) أن قصة الوفاء هذه أسطورة استمدت مادتها من أسفار (صموئيل الأول) في التوراة ومن الأساطير العربية القديمة ، نظمت على هذه الصورة ، فجعل بطلها شخصين هما : السموأل وامرؤ القيس ، والواقع أن موضوع وجود السموأل نفسه قصة فيها نظر ولا أستبعد أن تكون هذه القصة من وضع "دارم بن عقال" وهو من ولد السموأل^(١) ، أو من وضع أناس آخرين رووا عنه ودارم هو راوي خبر قصة الوفاء ... وقد تحدث المستشرقون عن شعر السموأل ولهم فيه كلام ، فيهم من يؤيد أصالة أكثره ، ومنهم من لا يعترف إلا بأصالة القليل منه ...»^(٢) .

وهذه القصة إذاً لا تقل أثراً في مجال الثقافة عن أثر ملحمة أيوب ؛ وعليه فإن ما قيل حول السموأل من خبر أو شعر يحتاجان إلى إعادة النظر من قبل الباحثين ؛ لأن العودة إلى التراث وقراءة بعض نصوصه تدعوها أكثر من ضرورة ؛ لأن التراث بكل مكوناته هو الذاكرة الجماعية للأمة وبدونها تفقد توازنها الذي هو أساس بقائها وخلود حضارتها بين الأمم .

(١) السيادة العربية والشبيعة والإسرائيليات .

(٢) الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ح ٩/٧٧٦ ، ٧٧٧ .

قائمة المصادر والمراجع

- ١ - الآداب السامية ، محمد عطية الأبرشي ٠- بيروت : دار الحداثة ، ١٩٨٤ م .
- ٢ - أساطير العالم القديم ؛ ترجمة د/ أحمد عبد الحميد يوسف ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤م .
- ٣ - الاشتقاق ، ابن دريد ؛ تحقيق عبد السلام هارون ٠- مصر : مطبعة السنة المحمدية ، مكتبة الخانجي، ١٩٨٥ م .
- ٤ - الأعلام الجاهلية ؛ دراسة في البنية اللغوية د/عاطف مذكور ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، د . ت .
- ٥ - تاريخ آداب اللغة العربية ، جرجي زيدان ٠- بيروت : دار مكتبة الحياة ، ١٩٨٣م .
- ٦ - تاريخ الأدب العربي ، د/ عمر فروخ ٠- ط٤ ٠- دار العلم للملايين ، ١٩٦٥ م .
- ٧ - تاريخ دولة الأنباط ، د/ إحسان عباس ٠- عمان - الأردن : دار الشروق للنشر والتوزيع ، ١٩٨٧م .
- ٨ - تاريخ اللغات السامية ، أ/ ولفنسون ٠- ط١ ٠- لبنان : دار القلم ، ١٩٨٠ م .
- ٩ - ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، الثعالبي ؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ٠- مصر : دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، ١٩٦٥ م .
- ١٠ - حماد الراوية بين الوهم والحقيقة ، د/ فضل بن عمار العماري ٠- الرياض : مكتبة التوبة ، ١٩٩٦م .
- ١١ - خلف الأحمر-الشاعر العالم ، د/ فضل بن عمار العماري ٠- الرياض : مكتبة التوبة ، ١٩٩٨م .

- ١٢ - خطط البصرة وبغداد ، أ/ مانسنيون ؛ ترجمة إبراهيم السامرائي ، المؤسسة العربية للدراسات والتنشيط ، ١٩٨١ م .
- ١٣ - دراسات في تاريخ وحضارة الشعوب السامية القديمة ، د/ محمد خليفة حسن أحمد - مصر : دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ١٩٨٥ م .
- ١٤ - دروس في العبرية ، د/ ربحي كمال - لبنان : دار النهضة العربية ، ١٩٨٧ م .
- ١٥ - ديوان الأعشى الكبير ، ميمون بن قيس د/م محمد حسين - مصر : المطبعة النموذجية ، د . ت .
- ١٦ - ديوان امرئ القيس ؛ تحقيق محمد أبو الفضل - ط ٢ ، دار المعارف ، ١٩٩٦ م .
- ١٧ - ديوان ذي الأصبع العدواني ؛ جمع وتحقيق عبد الوهاب محمد علي العدواني ومحمد الدليمي - الموصل ، العراق : مطبعة الجمهور ، نشر وزارة الأعلام ، ١٩٧٣ م .
- ١٨ - ديوان عروة بن الورد - والسموأل ، عيسى سابا ، دار الحياة للطباعة والنشر ، ١٩٨٢ م .
- ١٩ - ديوان النمر بن تولب ؛ صنعة نوري حمودي القيسي - بغداد : المعارف .
- ٢٠ - الزعيم السياسي في المخيال الإسلامي الجويلي - تونس : المؤسسة الوطنية للبحث العلمي ، ١٩٩٢ م .
- ٢١ - سموأل "السموأل" الأسطورة والمجهول ، د/فضل بن عمار العماري - الكويت : حويات الأدب والعلوم الاجتماعية ، الحولية الحادية والعشرون . ٢٠٠١/١٢٠٠٠ .

- ٢٢- السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية ، تأليف (فان فولتن)؛ ترجمة د . حسن إبراهيم حسن ، محمد زكي إبراهيم - ط ٢ - مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٥ م .
- ٢٣- شرح العلاقات العشر ؛ تحقيق د . فخر الدين قباوة - دمشق : دار الفكر ، ١٩٩٧ م .
- ٢٤- الشعر المنحول ، قضايا ونصوص ، د . فضل بن عمار العماري - الرياض : مكتبة التوبة ، ١٩٩٦ م .
- ٢٥- شعراء يهود في الجاهلية وصدر الإسلام ، د . عبدالله جبريل مقداد - الأردن : دار عمار ، ١٩٩٩ م .
- ٢٦- صفة جزيرة العرب ، الهمداني ؛ تحقيق محمد بن علي الأكواع - ط ٣ - بيروت ؛ لبنان : دار الآداب ، ١٩٨٣ م .
- ٢٧ - طبقات فحول الشعراء لابن سلام ؛ تحقيق محمود شاكر - مصر : مطبعة المدني ، ١٩٧٤ م .
- ٢٨ - العرب في سوريا قبل الإسلام ، رنيه ديسو ؛ ترجمة عبد الحميد الدواخلي ، ومراجعة د/محمد مصطفى زيادة - بيروت : دار الحداثة ، ١٩٨٥ م .
- ٢٩ - العرب واليهود في التاريخ ، د/ أحمد سوسة - ط ٦ - دمشق : العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٦ م .
- ٣٠ - فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيدة ؛ تحقيق د/ إحسان عباس ، عبد المجيد عابدين ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٧١ م .

- ٣١ - فصول في الأدب والثقافة ، د/جعفر ماجد ٠ - تونس : الدار العربية للكتاب ، ١٩٨٤ م .
- ٣٢ - قاموس الآلهة والأساطير في بلاد الرافدين (السومرية والبابلية) في الحضارة السورية (الأوغاريتية والفنيقية) ، تأليف مجموعة من الأساتذة الغربيين : ترجمه عن الألمانية محمد وحيد حياطة ٠ - حلب السلمانية : توزيع دار مكتبة سومر ، ١٩٨٧ م .
- ٣٣ - قاموس الكتاب المقدس ، تأليف نخبة من الأساتذة ٠ - بيروت : منشورات مكتبة المشعل ، ١٩٨١ م .
- ٣٤ - قراءة ثانية لشعرنا القديم ، د/مصطفى ناصف ٠ - ط٢ ، دار الأندلس ، ١٩٨١ م .
- ٣٥ - كتاب الاختيارين ، صنعة الأخفش الأصغر ؛ تحقيق فخر الدين قباوة ٠ - دمشق : مطبوعات مجمع اللغة العربية ، ١٩٧٤ م .
- ٣٦ - كتاب الأمثال لأبي عكرمة الضبي ؛ تحقيق رمضان عبد التواب ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٩٧٤ م .
- ٣٧ - كتاب الأمثال ، القاسم بن سلام ؛ تحقيق عبد المجيد طفيش ٠ - دمشق : دار المأمون للتراث ، المملكة العربية السعودية ، جامعة الملك عبد العزيز ، ١٩٨٠ م .
- ٣٨ - كتاب القبائل العربية أنسابها وأعلامها ، د/ إحسان النص ٠ - لبنان : مؤسسة الرسالة ، ٢٠٠٠ م .
- ٣٩ - كتاب اللغات في القرآن ؛ تحقيق صلاح الدين المنجد ٠ - بيروت : دار الكتاب الجديد ، ١٩٧٢ م .

- ٤٠- لسان العرب ، ابن منظور - ط ١١ - بيروت : دار صادر .
- ٤١ - المتوكل وشفاء الغليل ، السيوطي - دمشق : مطبعة الترقى ، ١٣٤٨ هـ .
- ٤٢ - مختار الصحاح ، الجوهري ، تصحيح أحمد شمس الدين - بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٩٤ م .
- ٤٣ - المعرب ، الجواليقي : تحقيق محمد شاكر - ط ٢ - مصر : دار الكتب ، ١٩٦٩ م .
- ٤٤ - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، جواد علي ، ج ٩ - ط ٢ - بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٩٧ م .
- ٤٥ - مقدمة لدراسة الشعر الجاهلي ، عبد المنعم خضر الزبيدي ، بنغازي ، ١٩٧٨ م .
- ٤٦ - موسوعة الفلكور والأساطير العربية ، شوقي عبد الحكيم - بيروت : دار العودة ، ١٩٨٢ م .
- ٤٧ - نقوش نبطية قديمة - دراسة تحليلية ، د/ سليمان عبد الرحمن الذبيب - الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٩٩٥ م .
- ٤٨ - الوثنية في الأدب الجاهلي ، د/ عبد الغني زيتوني - دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٨٧ م .